المستشرق البريطانيّ (مونتغمري وات) وكتابه (محمد في مكّة) دراسة تحليليّة نقدية

أ.د. حسن الحكيم

المقدّمة

اتّجهت الدراسات الاستشراقية نحو القرآن الكريم والحديث الشريف والسيرة النبوية أكثر من غيرها من الدراسات الإسلامية، وقد انصبّت الإرهاصات والأكاذيب على تلکم المحاور على وفق الاتجاه الانحيازيّ الدينيّ والمذهبيّ، والابتعاد عن المنهجية العلمية والحقيقة الواقعة. وهذا ليس معناه خلوّ الساحة العلمية من دراسات دقيقة اتّسمت بالدقة والواقعية، فقد انبرى بعض المستشرقين للردّ على المنحرفين والمغالطين عند دراساتهم ظاهرة الوحي، والأثر الديني، واستخدام السيف، ونحو ذلك من التخرّصات. ومنهم من أطلق لفظ (الديانة المحمّدية) على الإسلام، وعدّ القرآن الكريم من تأليف الرسول الأعظم ﷺ، ونحو ذلك من التخرّصات والأكاذيب، من دون الرجوع إلى المصادر الموثوقة والدراسات المنهجية الدقيقة، وكانت الدراسات البريطانيّة والمستشرقون الإنجليز يلتقون تارة مع الدراسات الاستشراقية الأخرى، أو يفترقون عنها، وخاصّة الذين تخصّصوا في دراسة السيرة النبوية الشريفة، وفي مقدّماتهم مونتغمري وات، ووبودلي، وستيوارت، والسير توماس أرنولد، وجيمس روبسون، ووليم جونز، وجب، والسير وليام سوير، وغيرهم من المستشرقين الإنجليز، ونقف في بحثنا

على المستشرق البريطانيّ مونغمري وات (Watt Montgomery) وكتابه (محمّد في مكّة) الذي عرّبه الأستاذ شعبان بركات، من دون الحديث عن كتابه الآخر (محمّد في المدينة)، على وفق ثلاثة محاور أساسية للدراسة، وهي: (المنهج والمصادر والنقد العلمي).

أولاً: منهجية المستشرق وات في كتابه (محمّد في مكّة)

توزّعت مفردات كتاب (محمّد في مكّة) على ستّة فصول وخاتمة وملاحق، ويتفرّع من كلّ فصل عدد من المواضيع، وسبقت الفصول الستّة دراسة في المصادر العربية والإسلامية التي استقى منها النصوص.

وكان الفصل الأوّل بعنوان (البيئة العربية) درس فيه (مونغمري وات) شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهليّ من جوانبها الاقتصادية والسياسية والإدارية، ناقش فيها آراء الكتاب الغربيين والمستشرقين منهم، من أمثال (لامنس، توينبي، نولدكه)، وركّز على النزعات التوحيدية في المنطقة، مستعيناً بالنصوص القرآنية.

وتناول في الفصل الثاني: المرحلة الأولى من حياة النبيّ الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، والدعوة الإسلامية، فابتدأ بنسبه الشريف ومولده وتربيته، وقد استقى نصوصه من مؤرّخ السيرة النبوية محمّد بن إسحاق المتوفّي عام ١٥١ هـ. فتناول زواج الرسول الكريم ﷺ من السيّدة خديجة بنت خويلد رضوان الله عليها، وما أنجبته من أبناء. ثمّ انتقل إلى عصر الرسالة، على وفق رواية محمّد بن مسلم الزهريّ المتوفّي عام ١٢٤ هـ، في موضوع (الوحي)، مستعرضاً آراء المستشرقين في هذا الجانب، وما أورده محمّد بن إسحاق في تفسير الآيات الكريمة الخاصة بالوحي، وقد استوعب المستشرق (مونغمري وات) وجهة النظر الإسلامية والآراء الغربية، وأعطى رأيه بقوله: «أكد أعداء الإسلام غالباً أنّ محمّداً كان مصاباً بالصرع (epileptique)، وأنّ تجاربه الدينية لهذا لا قيمة لها، ولكنّ الأعراض الموصوفة لا تشبه مرض الصرع؛ لأنّ هذا النقص يؤدّي إلى تحاذل جسديّ وعقليّ، بينما ظلّ محمّد ﷺ حتى آخر حياته مالئاً لقواه العقلية. حتّى لو أمكن ادّعاء ذلك فإنّ الحجّة تظلّ مناقضة لكلّ رأي سليم، إذ لم تقم إلا على الجهل

والوهم؛ لأنّ المظاهر الجسدية الملازمة لا تثبت ولا تنفي قط بنفسها التجربة الدينية^١.
 أمّا الفصل الثالث فقد جاء بعنوان (الرسالة الأولى)، بدأها المستشرق (وات) بتاريخ القرآن الكريم، مشيراً إلى من سبقه في الكتابة من المستشرقين من أمثال (نولدكه، وريشارد بل)، وبدأ بدراسة مضامين الآيات الكريمة الأولى واضعاً نصب عينيه كتاب المستشرق (نولدكه) محلاً له. وفي حديثه عن (أصالة القرآن) ناقش رأي المستشرق (جولدزيهر) بقوله: «ولربما بدأ الهدف من إظهار الاستمرار بين القرآن، وطرق التفكير القديمة عند العرب مناقضاً لفكرة الفصل الأوّل الشهير من كتاب (دراسات محمدية) لجولدزيهر عن (المروءة والدين). وليس من السهل معارضة آراء جولدزيهر، وليس التناقض مع ذلك تماماً، ومن الواضح وجود بعض التناقض بين تعاليم محمد على أساس القرآن وطرق التفكير العربية القديمة، ولو لم يكن الأمر كذلك لما قامت المعارضة الشديدة له»^٢.

وتناول المستشرق (وات) في الفصل الرابع من كتابه (محمد في مكة) المسلمين الأوائل، معتمداً على روايات المؤرخ الطبري المتوفى عام ٣١٠هـ، ولكنه قد رجح روايات محمد بن إسحاق على غيره من المؤرخين بقوله: «يمكن اعتبارها صحيحة على الإجمال»^٣.

وأخذ (وات) بعد ذلك بتوزيع الصحابة على القبائل العربية على وفق انتسابهم لها، مبتدئاً ببني هاشم، وقد اعتمد على قوائم المستشرق (كايتاني) في الحوليات المستمدة من كتاب (الطبقات الكبرى) لمحمد بن سعد المتوفى (٢٣٠هـ)، وكان يشير إلى الرجال الذين أسلموا من كلّ قبيلة، وكان في الوقت نفسه يعطي صورة لمكانة القبيلة الاجتماعية. وتعرض إلى المستضعفين من الصحابة.

وخصّص المستشرق (وات) الفصل الخامس للمعارضين للدعوة الإسلامية، معتمداً على روايات المؤرخ الطبري عن هشام بن عروة، وأبي العالية وقد علل رفض النبي الكريم ﷺ

١. وات، محمد في مكة، ١٠١.

٢. م. ن، ١٣٨.

٣. م. ن، ١٤٦.

لعروض المكّيين بقوله: «وهكذا لم يرفض محمّد عروض المكّيين لأسباب زمنيّة، بل لسبب ديني حقيقي؛ ليس لأنّه لم يثق بهم مثلاً، أو لأنّه لم يبق شيء عن مطامحه الشخصيّة، بل لأنّ الاعتراف بألّتهم يؤدّي إلى فشل قضيتّه والمهمّة التي تلقاها من الله^١. وحينما تعرّض لهجرة المسلمين إلى الحبشة اعتمد على رواية ابن هشام، عن ابن اسحاق، وناقش آراء المستشرق (كايتاني) حول بعض الروايات، وأعطى أسباباً لهجرة المسلمين إلى الحبشة، بعد تحليل دقيق للنصوص المقتبسة من ابن هشام، وابن سعد والطبري.

وجاء الفصل السادس من كتاب (محمّد في مكّة) بعنوان (امتداد الآفاق)، تعرّض فيه المستشرق (وات) إلى خطورة الموقف على النبي الكريم ﷺ بعد وفاة عمّه أبي طالب، وزوجته خديجة بنت خويلد (رضوان الله عليهما)، فأصبحت مدينة الطائف المثل الأوّل لهذه الخطورة التي أشار إليها المستشرق (وات) بقوله: «صورة مصغرة لمكّة». وتبدأ بعد ذلك المفاوضات مع أهالي المدينة، فوصف (وات) وضعها الاجتماعي والاقتصادي، وتحدّث عن بيعة العقبة. وعند ذلك تنتهي فصول الكتاب.

ووضع المستشرق (وات) ملاحق لكتابه، وأعطى لكلّ ملحق مسمّى معيناً، فقد تعرّض للملحق (الأحباش) إلى مقالة المستشرق الفرنسي (لامنس) التي تحمل الاسم م. ن، فكان يأخذ برأيه تارة، ويرفضه تارة أخرى فيقول: «ولكنّه للأسف يتجاوز الأدلّة كثيرًا في ناحية أخرى». واستعان (وات) بنصوص استقاها من الواقديّ وابن هشام وابن سعد. وفي الملحق الذي سمّاه (التوحيد العربيّ والتأثيرات اليهوديّة والمسيحيّة) تناول فيه آراء المستشرق (مارغو ليوث) في مقالته عن أصول الشعر العربيّ وآراء (توري) في كتابه (الأساس اليهودي للإسلام)، وكان كثير من المستشرقين قد أظنّوا في هذا الموضوع. وحملت الملاحق الأخرى من كتاب (محمّد في مكّة) موضوع الحنفاء، والأحاديث المنقولة عن عروة بن الزبير، وكان قد شكّك في بعضها.

ثانياً: مصادر كتاب (محمد في مكة)

استقى المستشرق (مونتغمري وات) نصوصه من مصدرين أساسيين هما: المصادر العربية والإسلامية، والمصادر الغربية والاستشراقية، وكان قد تحدّث عن مصادره بقوله: «كلمة حول المصادر، وقد ذكرها في سياق البحث وهي: (المغازي) للواقدي، و(السيرة النبوية) لابن هشام، و(الطبقات الكبرى) لابن سعد، و(المسند) لأحمد بن حنبل، و(الصحيح) للبخاري و(تاريخ الرسل والملوك) للطبري، و(أسد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الأثير، و(الإصابة في تمييز الصحابة) لابن حجر». وتناولت هذه المصادر السيرة النبوية الشريفة، والحديث الشريف ورواة الحديث.

وكان كتاب (السيرة النبوية) لابن هشام (المتوفى عام ٢١٨هـ) في حقيقته تهذيباً لكتاب (السيرة النبوية) لمحمد بن اسحاق (المتوفى عام ١٥١هـ)، فقد استقى منه المستشرق (وات) نصوصاً عن حملة أبرهة على مكة، ومولد الرسول الكريم ﷺ، وأشار إلى قائمة المسلمين الأوائل أيضاً (صحيحة على الإجمال)^١، واستقى أيضاً نصوصاً من محمد بن مسلم الزهري في بعض المواضيع، وعند روايته عن المؤرخ الطبري يشير إلى مصادرها عن عروة بن الزبير. ويقف (وات) من روايات الواقدي وروايات ابن سعد موقف الناقد، فيقول: «ويجعلنا ابن سعد نستشعر بأنه يهتم اهتماماً كبيراً بدراسة الأنساب، وأنه مطلع على الصعوبات التي تعترض المسائل المختلف عليها، فأنسابه إذن تستحق الثقة حتى عصر قصي في مكة، ويجب تناول الأنساب السابقة والمادة التاريخية بحذر ولسوف تعترضنا صعوبات، خاصة فيما يتعلق بالمدينة؛ بسبب بقايا سيطرة الأم»^٢. وفي معرض تناول (وات) للمستضعفين، يعني طبقة صغيرة في المجتمع المكّي، وقد استقى نصوصاً قليلة من المؤرخ المسعودي المتوفى عام ٣٤٦هـ، في كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، فيما يتعلق بتاريخ مكة في عصر ما قبل الإسلام، وبالأخص الحياة الاجتماعية^٣.

١. م. ن، ١٤٦.

٢. م. ن، ١٢.

٣. م. ن، ٢٣-٢٤.

واستقى من كتاب (المعارف) لابن قتيبة الدينوري، المتوفى عام ٢٧٦هـ، وكتاب (الصحيح) لأبي عبد الله البخاري (ت ٢٥٦هـ)، وكتاب (الإتقان في علوم القرآن) لجلال الدين السيوطي، المتوفى ٩١١هـ، خصوصاً تتعلّق بظاهرة الوحي، ويبدو أنّه حاول الإمام بهذا الموضوع لخطورته في الفكر الاستشراقيّ، معتمداً على مصادر من أعلام القرن الثالث الهجريّ، إلى القرن العاشر الهجريّ. وكانت نصوص المؤرّخ الطبري الخاصّة بالمسلمين الأوائل والمعارضة القرشيّة للإسلام قد أخذت مساحة واسعة من كتاب (محمّد في مكّة)، فنقل المستشرق (وات) عن المؤرّخ الطبري، عن هشام بن عروة بن الزبير، وثيقة كتبت في عهد عبد الملك بن مروان حول معارضة المكّيّين للدعوة الإسلاميّة، ولكنّه وجّه نقداً لابن هشام والطبري بقوله: «إنّ التفاصيل التي نجدها عند ابن هشام والطبري بصدّد بقيّة الفترة الخارجة في معارضته النبيّ، ويجب أن نتسامح بصدّد بعض المبالغات من جانب أو آخر؛ لأنّ هذه المبالغات هي أقلّ بكثير ممّا فكّر به الكتاب الغربيّون»^١.

وكانت استشهادات المؤرّخ (وات) لآيات القرآن الكريم في كتابه محدّدة في مواضع قد أحسن اختيارها، وبخاصّة عند حديثه عن النزعات التوحيدية عند العرب قبل الإسلام، وفي الفترة المكيّة لعصر الرسالة، ومنها يستخلص جوانب من السيرة النبويّة، فيقول: «فهو لا يمدّنا بأيّ شيء يمكن أن يكون لوحة كاملة لحياة محمّد والمسلمين خلال الفترة المكيّة»^٢. وهذا أمر طبيعيّ؛ لأنّ القرآن الكريم ليس مصدراً تاريخياً يحكي تسلسلاً للأحداث. وإتّما يضمّ تلميحات تاريخيّة يمكن أن يعتمدها المؤرّخون للاستشهاد مع نصوص الحديث الشريف والتاريخ الإسلاميّ، ولكن على الرغم من استشهادات (وات) بالقرآن الكريم، نجده في الآخر (الإسلام والتكامل الاجتماعيّ) يبتعد عن هذا الفهم للقرآن الكريم، فيقول: «ولا توجد في القرآن صفحات تلمّح بأنّ الإسلام دين شامل، وإنّ القصص التي تشير إلى شموليّة الإسلام قد وجدت في سيرة حياة محمّد والتي منها أنّه قد أرسل رسله لاستدعاء أباطرة بيزنطة والفرس والحبشة وملوك آخرين،

١. م. ن، ١٨٩.

٢. م. ن، ١٣.

ولكن مثل هذه القصص قد رفضت من قبل النقاد الغربيين بسبب التناقضات التي كانت قد أقحمت بها^١. ولم نجد لـ(المستشرق وات) مراجعة للكتب العربية الحديثة والمعاصرة التي تناولت السيرة النبوية الشريفة سوى كتاب (شباب قريش) للكاتب المصري عبد المتعال الصعيدي، الذي تحدّث فيه عن المسلمين الشباب^٢. أمّا الكتب الغربية فإنّه اعتمد على عدد منها، وفي مقدمتها كتاب (حوليات الإسلام) للمستشرق (كايتاني)، وبخاصّة في القوائم التي استمدّها من كتاب (الطبقات الكبرى) لابن سعد، حول المسلمين الأوائل، وفيما يتعلّق بهجرة المسلمين إلى الحبشة، فإنّه استقاه من (كايتاني) عن محمد بن إسحاق وابن هشام والطبري. وكان كتاب (الأبطال أو عبادة الأبطال) للمستشرق (كارليل) له أهميّة رفيعة لدى المستشرق (وات)، فيقول: «منذ أن قام هذا بدراسته عن محمد أدرك الغرب أنّ هناك أسباباً وجيهة للاقتناع بصدق محمد»^٣.

أمّا دراسة المستشرق (نولدكه) Die Tradition under des Leben Mohammeds التي تناولت تاريخ العرب القدماء، وديانتهم في الجزيرة العربية، فقد اقتبسها المستشرق (وات) من كتاب (الأصنام) لهشام بن محمد بن السائب الكلبي، كما أنّه أشار إلى كتاب (تاريخ القرآن) للمستشرق (نولدكه) وإلى (ترجمة القرآن) للمستشرق (رشاردبل). وعند حديثه عن رسالة الإسلام الأولى، فإنّه اعتمد فيها على (نولدكه) في مواضع عدّة. واختلف معه في مواضع أخرى بقوله: «ولكن كثيراً من النتائج التي توصل إليها ليست أكيدة تماماً، وإن كانت ممكنة»^٤. ووجه نقداً إلى نظريّات ديتلف نيلسن (Dictief Nielsen) في بعض المواضع من كتابه (محمد في مكّة) إلى المستشرق (لامنس) الذي عدّ بعض نظريّاته لا أساس لها^٥.

وفي معرض حديثه عن أفضليّة قريش يقول: «لا تؤيّد المصادر وجهة النظر التي عرضها

1. Watt, Islam and The Integration of Society, 259-260.

٢. وات، محمد في مكّة، ١٦٠.

٣. م. ن، ٩٤.

٤. م. ن، ١٠٧.

٥. م. ن، ٣١.

لامنس)، ونلاحظ أنّ المستشرق (وات) في بعض النصوص يستصوب رأي (لامنس)، وعند تعرّضه لكتاب (دراسة في التاريخ) للمستشرق (كايتاني) نجده قد اعتمد عليه في حديثه عن مكّة وحياتها الاقتصادية قبل الإسلام، وأشار إلى كتب أخرى ومنها (حياة محمّد) للمستشرق (السير وليم موير)، ومقالة للمستشرق مرجليوث، بعنوان (أصول الشعر العربي)، وكتاب (أصول التشريع الإسلامي) للمستشرق (شاخنت)، وكتاب (دراسات إسلامية) للمستشرق جولدزيهر. واستعرض آراء (كارل أهرنس، وهرشغلد وبولين، وريتشارد بل) في موضوع الوحي.

ثالثاً: رأي في كتاب (محمّد في مكّة)

على الرغم من موضوعيّة المستشرق (مونتجومري) في دراسة السيرة النبويّة الشريفة، ونقده لبعض آراء المستشرقين الغربيين، إلّا أنّه وقع في هفوات وأخطاء، وهذا ناتج عن عدم استيعابه الكامل للموروث الإسلامي، وآراء المذاهب الفقهيّة والكلامية، فهو عند استعراضه لنزول القرآن الكريم، أعطى فهمًا ضيقًا لهذا الحدث التاريخي بقوله: «يعتقد المسلمون السنيون أنّ القرآن وحي إلهي، وأنّه كلام الله»^١.

وهذا التّحديد بالمسلمين من أهل السنّة غريب في بابهِ في مسألة لا يختلف فيها جميع المسلمين، وإنّ هذا الإجماع حاصل في العقيدة الذاهبة إلى سواويّة القرآن الكريم وكهاله وإعجازه، والمسلمون جميعًا يؤكّدون نزول الوحي على النبيّ الكريم ﷺ، ويبدو أنّ المستشرق (وات) لم يتعب نفسه للوقوف على آراء مذاهب المسلمين، ويتعمّق في الأصول الكلامية، وبالأخصّ مسألة الوحي. وعند تعرّض (وات) لمسألة (خلق القرآن) التي كانت مثار جدل بين العقليين والسلفيين المسلمين يقول «إنّ السنيين يعتقدون دون غيرهم أنّ القرآن في أصله مصدر إلهيّ بأكمله، وهو كلام الله غير المخلوق، ويعتقد الغربيّ المدنيّ أو ربما اعتقد إذا أخذ بالتحيز الذي قام به محمّد أنّ القرآن من صنع شخصيّة محمّد غير الواعية ووجهة النظر الثالثة هي أنّ القرآن من صنع النشاط الإلهيّ الذي يظهر من خلال شخصيّة محمّد، وهذا يجب نسبة بعض صفات القرآن

إلى طبيعة محمد الإنسانية، وهذا على ما يبدو موقف المسيحيين الذين يعترفون بقسم من الحقيقة الإلهية في الإسلام، وإن كانت هذه الحقيقة لم تتحقق فيه تماماً^١، وقبيل أن يعطي المستشرق (وات) رأيه في هذه الأمور التي ذكرها، يجب أن نستوقفه قائلين: هل إن المسلمين من أهل السنة جميعهم على رأي واحد حول قدم القرآن الكريم؟ فإن المسألة هذه بحاجة إلى دراسة عملية مستفيضة، نابعة من وعي للتاريخ، وذلك للوقوف على وجهة نظر جميع مذاهب المسلمين. فإن من الثابت أن أنصار المذهب الحنبلي من أهل السنة وحدهم يأخذون بالرأي القائل بقدم القرآن الكريم، والإمامية والمعتزلة متفقون على القول بحدوث كلام الله ﷻ^٢، ويقول الشيخ الطوسي: إن قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦). «له دلالة على أن القرآن الكريم محدث؛ لأن القديم لا يجوز وصفه بالمنزل والتنزيل، لأن ذلك من صفات المحدثين»^٣، وأخذ المستشرق (وات) برواية المؤرخ الطبري في تشخيص المسلمين الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام بعد السيدة خديجة بنت خويلد بقوله: «ولربما كان عليّ جديراً بذلك، ولكن هذا لا معنى له في نظر المؤرخ الغربي؛ لأن علياً كان آنذاك في التاسعة أو العاشرة من عمره، وكان أحد أفراد عائلة محمد، وليس أبو بكر أقل جدارة من عليّ، ولكن بمعنى آخر، وهو أنه كان أعظم المسلمين شأنًا أيام قضية الحبشة بعد محمد، ويبدو أن دوره الكبير الذي قام به فيما بعد في الروايات الأولى. وربما كان زيد بن حارثة هو الأجدر باعتباره أول مسلم ذكر؛ لأنه كان عبدًا حرره محمد وكانت صلتها وثيقة، غير إن حقارة أصله تعني إن إسلامه لم يكن له في نفس مغزى إسلام أبي بكر»^٤. وإن روايات المؤرخ الطبري صريحة في تشخيص المسلمين الأوائل، فهو ينقل عن الواقدي في إسلام خديجة ويقول: «أصحابنا مجمعون على أن أول أهل القبلة استجاب لرسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد رحمها الله»^٥.

١. م. ن، ٩٥-٩٦.

٢. البغدادي، الفرق بين الفرق، ٧٥.

٣. الطوسي، التبيان، ٦: ٥٣١.

٤. وات، محمد في مكة، ١٤٤-١٤٥.

٥. الطبري، التاريخ، ٢: ٣٠٧.

وقدّم عدّة روايات على اعتناق الإمام عليّ عليه السلام، وإيمانه به بعد السيّدة خديجة بقوله: «كان أوّل ذكر آمن برسول الله صلى الله عليه وآله معه وصدّقه بما جاءه من عند الله عليّ بن أبي طالب عليه السلام»^١. عدا رواية واحدة أشار فيها إنّ أبا بكر أوّل من أسلم^٢. ومن الغريب أنّ المستشرق (وات) قد أخذ بالرواية المفردة، وأعرض عن الروايات المتواترة بشأن المسلمين الأوائل، ولا ندري من أين استقى معلوماته القائلة بأنّ زيد بن حارثة كان أوّل من اعتنق الإسلام، في الوقت الذي أجمعت المصادر على القول: إنّ عليّاً عليه السلام هو أوّل من أسلم من الذكور، وإنّه لم يعرف الشرك في حياته؛ لذلك فهو قد طبع على الإسلام في فترة مبكرة من حياته، وقد دعاه النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله، كما دعاه قبله السيّدة خديجة رضوان الله عليها، بعد نزول الوحي عليه لأوّل مرّة، قبل أن يفتح أحدًا من أهل بيته ويقول المؤرّخ المسعودي: «وكان بدوّه بعليّ إذ كان أقرب الناس إليه وأتبعهم له»^٣. وإذا كان المؤرّخ الطبريّ لم يترجّح لديه المسلم الأوّل بعد السيّدة خديجة، وهذا هو منهجه في تدوين عدد من الروايات في المسألة الواحدة، ليس معناه عدم الرجوع لغيره من المؤرّخين في تشخيص هذه المسألة، فكان على المستشرق (وات) استقصاء جميع المصادر، لا أن يكتفي بروايات المؤرّخ الطبريّ التي تقوده إلى مثل هذه الاجتهادات الخاطئة؛ لأنّ الذين عاشوا في بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومهبط الوحي. هم يشكّلون الشريحة الأولى في الإسلام. وأوّل من أدّى فريضة الصلاة خلف النبيّ صلى الله عليه وآله، وكانت تبريرات المستشرق (وات) في هذا الموضوع ضعيفة وواهية. وإنّ مسألة السنّ والجنس لا موقع لهما في الإسلام.

وكان المستشرق (وات) في بعض الأحيان يتردّد في إعطاء الحقيقة بقوله (ربما)، وهذا حصل عند تحديد عمر النبيّ الكريم في عام الفيل، عند فشل حملة أبرهة على الكعبة، فيقول: «وربما ولد بعد وفاة أبيه، ونشأ في رعاية جدّه عبد المطلب»^٤. وإذا عاد (وات) إلى المصادر الموثوقة فلا داعي لتكرار لفظ (ربما) الذي كرّره في زواج النبيّ الكريم من السيّدة خديجة، وعدد أبنائه منها^٥.

١. الطبريّ، التاريخ، ٢: ٣٠٩.

٢. م. ن، ٣١٠.

٣. المسعودي، مروج الذهب، ٢: ٢٨٣.

٤. وات، محمّد في مكة، ٦٥.

٥. م. ن، ٧٣.

الخاتمة

خصّ بحثنا بدراسة المستشرق البريطانيّ (مونتغمري وات) من خلال كتابه (محمد في مكة) دون كتبه الأخرى في التراث الإسلاميّ. على وفق رؤية تاريخية وتحليلية نقدية، بعيدة عن الإنحياز الدينيّ، مؤشّرين على الآراء الإيجابية والسلبية. على وفق المشهور المدوّن في المصادر الأساسية الموثوقة التي تناولت السيرة النبوية الشريفة والدين الإسلاميّ. وكان المستشرق (وات) كغيره من المستشرقين والكتاب الغربيين قد أصابوا في جانب، وأخطأوا في جانب آخر، وقد يكون أكثر اعتدالاً ووضوحاً من غيره عند دراسة القضايا الإسلامية التي أحيطت بالتشكيك أو الافتراء. وغرضها الإساءة لرسول الإنسانية محمد ﷺ والرسالة الإسلامية، وفي مقدمتها (نزول الوحي)، و(مصطلح الديانة المحمّدية)، و(استخدام السيف)، و(موضوع تعدّد الزوجات)، وغيرها من الأحداث التي فسرها كثير من المستشرقين اقتصادياً وعسكرياً وجنسياً، من دون الرجوع إلى المصادر الأساسية في التفسير والحديث والتاريخ والأدب؛ ولذا وقعوا في انزلاق الأوهام، ولم يتورّع بعضهم من إطلاق الشتائم والكلمات النابية التي أبعدهم عن الموضوعية في البحث العلميّ، وكنا قد وجدنا المستشرق البريطانيّ (مونتغمري وات) مواضع القوة والضعف في كتابه (محمد في مكة)، وكان قد استقى نصوصاً غير موثوقة، من دون الرجوع إلى غيرها للتأكد من سلامتها، وكنا قد رجعنا إلى المصادر الإسلامية في التفسير والتاريخ والفرق للتأكد من حقيقة تلك النصوص، وهذه تشكّل نقطة ضعف في دراسة (وات) للسيرة النبوية؛ ولذا وقع في أخطاء وأوهام، وإنّ الدارس المتفحص لكتاب (محمد في مكة) يقف على اجتهادات جيّدة للمستشرق (وات) من جانب، وعلى هفوات من جانب آخر.

لائحة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. البغدادي، عبد القاهر، الفرق بين الفرق، دراسة وتحقيق: مجدي فتحي السيد، القاهرة، دار التوفيقية للتراث، د.ت.
٣. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ج ٢، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف، ط ٢، د.ت.
٤. الطوسي، محمد بن حسن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٢٠٩.
٥. المسعودي، أبو الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، راجعه: كمال حسن مرعي، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠١١.
٦. وات، مونتغمري، محمد في مكة، تعريب: شعبان بركات، صيدا - بيروت، منشورات المكتبة العصرية، ١٩٥٢.
7. Watt, Montgomery, Islam and The Integration of Society, Routledge and Kegan Paul LTD, 1961.